دور الكتب الإسلامية
وخزائن التراث

لم تكن حركة إحياء التراث عملاً فردياً يتطوع له من يحصون على حماية العربية والإسلام ديناً ودولة ، وإنما اضطلعت الدولة بمسئولياتها تجاه العمل القومى الجليل ، فكان إنشاء دور الكتب العامة ، من أقوى الشواهد على تقدير الدولة للتراث العلمى والأدبى ، ووعيها لقيمة الكتاب وخطر رسالته .

ويشهد التاريخ لأمتنا بأنها حرصت منذ قامت دولتها الإسلامية الكبرى ، على أن تكون المكتبات العامة حارسة للمخطوطات ، ومدارس مفتوحة الأبواب لطلاب العلم . ورصدت لها من الجهود والأموال ما جعلها مقصد العلماء والطلاب فى زمن لم يكن يعرف سوى الكتاب وسيلة لنشر الثقافة .

ولقد بدأت هذه العناية من عصر مبكر ، فما كاد العرب يؤسسون دولتهم حتى جدوا فى جمع تراثهم القديم وتدوينه ، ونشطوا فى التأليف فى علوم الإسلام . وسايرت هذا النشاط الجاد ، حركة منظمة لترجمة الآثار الفكرية والعلمية لمختلف الشعوب ذات الميراث الحضارى . ثم امتدت نظرتهم الثاقبة إلى الأفق العالمى الرحب ، فأقبلوا يجمعون ما عرفت الدنيا لعهدهم من كتب ذات بال .

والأمة العربية قد بدأت بالإسلام تخرج من جزيرتها حاملة لواءه الأغر ، فما مضى ربع قرن من الزمن بعد الهجرة ، حتى كانت قد فتحت مصر والشام والعراق وأظل اللواء الواحد شعوبها وارثة حضارات الفراعنة والكلدانيين والأشوريين والفرس والفينيقيين . ثم أهل القرن الثانى للهجرة ، وقد امتدت الفتوح الإسلامية إلى الشمال الإفريقى وتغلغلت فى الشرق الآسيوى .

وحدث تحول تاريخى خطير :

فهذه الشعوب كانت قد خضعت لحكم اليونان والفرس والرومان نحو ألف عام

(٣٣١ ق م : ٦٤٠ م) وحاول الغزاة عبثاً أن يفرضوا عليها أديانهم وألسنتهم وقومياتهم ، فلقد تشبثت شعوب المنطقة بقومياتها وعقائدها ، وناضلت عنها فى استبسال ضد الغزو الجائح ، واحتملت فى سبيلها أبشع تعذيب واضطهاد .

وخرج الغزاة من المنطقة ، لم يتركوا وراءهم قومية يونانية أو فارسية أو رومانية ، وكأنما مثلهم ومثلنا ، قولُ الشاعر العربى القديم :

أحارثَ إنا لو تُساط دماؤنا تزايَلْنَ حتى ما يَمَسَّ دمٌ دما !

وجاء الإسلام فتم له فتح هذه الأقطار فى أعوام معدودات ، وترك لها حرية العقيدة واللسان ، فلم تلبث شعوبها جميعاً أن انضوت تحت لوائه فى استجابة وطواعية ، وبدأت تتعرب من الجيل الأول بعد الفتح ، فلم تمض بضعة أجيال حتى تم تعريبها ودخلت فيما يُعرف تاريخيًّا بدور العروبة الصريحة[١] .

ولا يستطيع التاريخ أن يجد تفسيراً لتماثل هذه الشعوب تاريخاً ومصيراً ، وإجماعها على رفض الاندماج فى الغزاة ، ثم استجابتها للإسلام والعربية عن طواعية واختيار ، إلا أن يرده إلى وحدة جبرية ، هيأ لها تماثلٌ فى العقلية والمزاج والمناخ وتقارب فى الأصل البعيد ، رسخ مع توالى الحقب والأدهار .

* * *

وبدأت الدولة الإسلامية تأخذ دورها القيادى للبشرية فى الحضارة المادية والمعنوية ، فكانت نهضتها الفكرية والعلمية من دعائم هذه الحضارة ، وكانت عنايتها بإحياء تراثها وتشييد دور الكتب ، تساير هذه النهضة مؤثرة فيها ومتأثرة بها .

* * *

---

(١) محمد عزة دروزه : تاريخ الجنس العربى ٣/٢١ ، ٤/٩ ط بيروت .
وانظر معه الفصل الثانى من كتابى (لغتنا والحياة) ط معهد البحوث والدراسات العربية : ١٩٦٩

وإذ نلقى نظرة سريعة على بعض دور الكتب العامة فى تلك العصور الإسلامية المبكرة ، أود أن أشير إلى محاولة جادة رائدة فى هذا الميدان ، استطاع بها المؤرخ اللبنانى « فيليب دى طرازى » أن يجمع ما تناثر وتبعثر فى ألوف المصادر ، من أخبار ومرويات عن خزائن كتبنا . وأثمر جهده الباذل المضنى ، سفراً جليلاً فى مجلدات ثلاثة ، نشرته دار المعارف اللبنانية سنة ١٩٤٨ بعنوان « خزائن الكتب العربية فى الخافقين » .

وإذا كان الميدان بطبيعته يحتمل إضافات جديدة مما فات الأستاذ الكبير أن يذكره ومما كشفت عنه البحوث المعاصرة من أنباء دور أخرى كانت مجهولة لنا ، فالذى لا ريب فيه هو أن هذا السفر الجليل لا يزال مرجعاً هاماً للذين يعنيهم أن يعرفوا كنوز ذخائرنا التى شهدها التاريخ تملأ ساحة الدولة الإسلامية وتشع نورها على بعيد الآفاق فتنسخ ظلمات الجهل .

وفى حدود ما يسمح به المجال هنا ، أقدم ثلاث دور منها فحسب ، اتجه القصد فى اختيارها من بين الألوف من دور الكتب الإسلامية ، إلى لمح الجهود المتتابعة التى تعاونت على حمل العبء ، من مركز الدولة الإسلامية فى صميم المشرق الآسيوى على ضفاف دجلة ، إلى قلب العالم الإسلامى على ضفاف النيل ، ثم إلى أقصى المغرب الإفريقى بالأندلس على ساحل بحر الظلمات .

* * *

بيت الحكمة ببغداد :

حتى آخر عهد الخليفة المنصور (١٧٠ هـ) ، كانت مخطوطات التراث ودفاتر العلم . تحفظ فى قصر الخلافة ببغداد . حتى ضاق عنها على سعته .

ثم كان هرون الرشيد هو الذى اتجه إلى إخراجها من جدران القصر بعد أن تضخم رصيدها من التراث المدون والمخطوطات المؤلفة والمترجمة ، لتكون مكتبة عامة مفتوحة الأبواب للدارسين وطلاب العلم .

وبدأ فأسس داراً رحبة فخمة للمكتبة ، نقل إليها تلك الذخائر وسماها « بيت الحكمة » تقديراً لجلال رسالتها . فكانت أكبر وأقدم المكتبات العربية العامة .

وفى بيت الحكمة ، خُصص جناح للترجمة التى واصلت نشاطها غير مكتفية بما سبق نقله من تراث الفكر القديم ، وجىء بكتب الطب من أنقرة وعمورية وبلاد الروم . وعهد بها إلى « يوحنا بن ماسويه » السوريانى المتعرب الذى قام بترجمتها . يعاونه عدد من المترجمين والكتبة الحذاق . كما جىء بكتب الحكمة والفلك من فارس ، وعهد بها إلى « أبى سهل الفضل بن نوبخت » الذى نقلها من الفارسية إلى العربية ، مواصلاً الحركة التى بدأها « ابن المقفع » بترجمة تراث الفرس . وأضيف إلى خزائن بيت الحكمة ، ما صنف علماء العربية والإسلام فى علومهم الأصيلة ، إلى جانب ما دونوه من تراثهم المجموع .

ومات « هرون الرشيد » وبيت الحكمة زينة بغداد عاصمة العربية والإسلام ، ورصيده من ذخائر الكتب المؤلفة والمترجمة ، يعيد إلى الأذهان ذكرى مكتبة الإسكندرية الكبرى .

فلما ولى « عبد الله المأمون » الخلافة ، لم تشغله شواغل السياسة والحكم ، عن الاهتمام ببيت الحكمة ، فبعث رسله إلى آسيا الصغرى وقبرص والهند والحبشة فى طلب الكتب ، وجنّد المترجمين لنقل ما حُمل إلى بيت الحكمة من كتب يونانية وسريانية وفارسية وهندية وإفريقية ، حتى بلغ ما أنفقته الدولة على ترجمة كتب اليونان وحدها ثلاثمائة ألف دينار فيما يروون . وتلقى بيت الحكمة ، جديدَ

المصنفات العربية والإسلامية ، التى شارك فيها علماء المسلمين من الفرس والروم ومصر وغيرها من أقطار الدولة ، ممن تعرب آباؤهم وأجدادهم بعد الفتح[١] .

ومن أشهر من تولوا منصب القَيِّم على بيت الحكمة فى عصر المأمون « سهلُ ابن هارون » الفارسى الأصل ، وكان تحت إشرافه مئات من المترجمين والخطاطين والنساخ ، وآخرون من المجلدين والمذهبين ، ذكر « ابن النديم » فى « الفهرست » أسماء مشهوريهم الذين برعوا فى فن تذهيب المصاحف وصناعة تجليد الكتب فى خزائن بيت الحكمة . كما ذكر أسماء مشهورى المترجمين من العصر الأموى إلى عصر المأمون .

وظل بيت الحكمة ببغداد ، وكان يدعى أيضاً دار العلم ، مزاراً للعلماء من أنحاء الدولة الإسلامية الكبرى ، ومقصداً لطلاب العلم والمعرفة ، لمدى قرون خمسة تقريباً . وقد كان علماء العربية والإسلام خارج العراق ، يجعلون رحلتهم إلى بغداد واجباً علمياً ، فيحجون إلى بيت الحكمة ويطلعون على ما فيه من نفائس المخطوطات فى زمن لم تكن المطبعة فيه قد عرفت ، لتيسر الإعلام عن هذه النفائس والتعريف بها ونشرها والإفادة منها .

حتى لقيت دار العلم مصيرها الفاجع مع سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، على ما سوف نشير إليه فى الحديث عن محنة تراثنا .

---

(١) جمال الدين القفطى : إعلام العلماء بأخبار الحكماء : ٣٨٠ .

مكتبة العزيز بالله الفاطمى بالقاهرة :

قامت دولة العبيديين الفاطمية فى المغرب الإفريقى مستقلة عن الخلافة العباسية ومناوئة لها . وقد امتد سلطان الدولة الفتية من منتصف القرن الرابع الهجرى إلى مصر والشام والحجاز واليمن ، وأوشك أن يهدد الدولة العباسية فى مركزها الرسمى بالعراق . ولم يكن ما بين الدولتين صراعاً سياسيًّا ومذهبيًّا فقط ، بل كان كذلك تنافساً على النفوذ الأدبى والفكرى . وكما أسس أبو جعفر المنصور العباسى مدينة بغداد قبيل منتصف القرن الثانى الهجرى عاصمة لدولة العباسيين ، أسس المعز لدين الله الفاطمى مدينة القاهرة عاصمة لدولة الفاطميين ، إثر دخولهم مصر ظافرين بعد منتصف القرن الرابع للهجرة . وكما ازدانت بغداد ببيت الحكمة التى أكسبتها مجداً وعزًّا وجذبت إليها العلماء والطلاب من مختلف أقطار العالم الإسلامى الكبير . حرص الفاطميون على أن تزدان القاهرة بمكتبة تضارع بيت الحكمة عظمة وشهرة .

وقد تم إنشاء هذه المكتبة القاهرية فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، الذى تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ بعد المعز لدين الله مؤسس الدولة الفاطمية بمصر وبانى عاصمتها القاهرة (٣٥٩ هـ ، ٧٩٠ م) وجامعها الأزهر (٣٦١ هـ ، ٩٧٢م).

والأخبار التى وصلت إلينا عن هذه المكتبة ، تشهد بأن العزيز بالله كان شديد الولع باقتناء الكتب والحرص على جمعها والاستكثار منها ، وبذل الأموال الطائلة لها . وكانت الكتب على عهده ، لا تزال تكتب بخط القلم ، فيتكلف نسخها من الجهد والمال والوقت ، ما يجعل عدد النسخ من الكتاب محدوداً ، ويذكرون مع ذلك أن مكتبة العزيز بالله لم تكن تقنع بالعدد القليل من نسخ الكتاب الواحد ، بل تستكثر منها قدر المستطاع . وفى تاريخها أنها كانت تقتنى فى أول عهدها ثلاثين نسخة خطية من (كتاب العين للخليل بن أحمد) وهو من أوائل المعاجم اللغوية العربية ، ومائة نسخة من (كتاب الجمهرة لابن دريد) وهو من أصول كتب اللغة ، وعشرين نسخة من (كتاب تاريخ الأمم والملوك) للطبرى عميد مؤرخى الإسلام القدامى .

وقد نما رصيد المكتبة من هذه المخطوطات ، حتى بلغت نسخ تاريخ الطبرى فى آخر خلافة الفاطميين ، ألفاً ومائتى مخطوط .

واختلف المؤرخون فى التقدير الإحصائى لرصيد مكتبة العزيز بالله ، فمن قائل إنها كانت تقتنى مائتى ألف كتاب ، ومنهم من وصل برقم الرصيد إلى مليون وستمائة ألف ، منها ستة آلاف وخمسمائة كتاب فى النجوم والهندسة والفلسفة ، واثنا عشر ألفاً من مصنفات العلوم الأخرى مترجمة ومؤلفة .

وهذا التفاوت بين رقمى الرصيد ، ما بين مائتى ألف ، ومليون وستمائة ألف ، لفت المحدثين من مؤرخى الحضارة الإسلامية . ويظن « جورجى زيدان » أن فى هذا الرقم الثانى التباساً من حيث المقصود بخزانة الكتب القاهرية فى عهد العزيز بالله : أهى مكتبته منفردة ، أم معها خزائن الكتب الأخرى التى اقتناها أمراء البيت الفاطمى وأعيان الدولة بالقاهرة ، اقتداء بالخليفة[1] ؟

وليس هذا الاحتمال فى تفسير التفاوت الإحصائى ، بأقرب من القول بأن يكون الرقم الأول (مائتا ألف) للرصيد العددى لكتب المكتبة ، ويكون الرقم الآخر (مليون وستمائة ألف) لعدد المجلدات ، بما فيها من نسخ متعددة أو مكررة من الكتاب الواحد ، وغير مستبعد أن تصل المجلدات برقم الرصيد إلى أكثر من مليون ونصف مليون مجلد ، وفى المكتبة ألف ومائتا نسخة من (تاريخ الطبرى) مثلاً .

وقد يُظن أن هذه المكتبة العامرة ، إنما شيدت استكمالاً لأبهة السلطان دون القصد إلى النفع العام ، وأن الخليفة أمر بحشد أكداس الكتب فيها ، إرضاء لشهوة الاقتناء دون أن يحفل بأمرها ، كمثل ما فعل سلاطين آل عثمان فى عصر متأخر . لكنا نقرأ فى (وفيات الأعيان لابن خلكان) أن العزيز بالله كانت له عناية خاصة بخزانة كتبه ، يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين . وقد عين لها قيما يتولى شئونها ، كان يجالسه ويقرأ له فى الكتب[2] .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى : ط دار الهلال بالقاهرة .

(٢) ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ترجمة العزيز بالله .

وتنقل الأخبار عنها ، أنها كانت دقيقة التنظيم والتنسيق ، ولها فهارس وقوائم مكتوبة بخط « ابن مقلة » و«ابن البواب» من مشاهير خطاطى العصر . كما كانت المكتبة تقتنى مع ذخائر المخطوطات ، خرائط جغرافية وأجهزة علمية هندسية وفلكية ، مما اخترعه علماء الدولة الإسلامية[1] . فكانت المكتبة مفخرة من مفاخر القاهرة فى عصر الفاطميين ، حتى لقيت مصيرها مع سقوط دولتهم فى أواسط القرن السادس الهجرى بعد طول احتضار .

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام ١٩٨/٦ ط دمشق .

obeikandl.com

مكتبة الزهراء بقرطبة :

حين بدأت دولة العباسيين بالمشرق سنة ١٣٢ هـ ، كانت هناك دولة عربية إسلامية جديدة ، فى طريقها إلى الظهور بأقصى المغرب الإفريقى . وتعرفون أن الدولة العباسية قضت على بنى أمية الذين تولوا الحكم بعد عصر الخلفاء الراشدين ، فلم ينج من الأمويين إلا نفر قليل أفلتوا من المصير الفاجع . ومن هذه القلة الناجية ، كان « عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان » الذى اشتهر فى التاريخ بلقب « عبد الرحمن الداخل » منذ دخل الأندلس بعد سقوط أسرته الأموية ، فشيد هناك دعائم ملك شامخ عتيد ، وأسس للعرب وللإسلام دولة مجيدة عاشت نحو ثمانية قرون ، وكانت فى عصر قوتها ووحدتها مناراً حضارياً أضاء للغرب الأوربى ظلمات عصوره الوسطى ، وزوّده بمدد سخى من كنوز الفكر الإسلامى والثقافة العربية ، كانت من أهم المعابر التاريخية للحضارة من الشرق إلى الغرب .

وقد بلغت دولة الأمويين بالأندلس أوج مجدها فى عهد عبد الرحمن الناصر ، ثامن خلفائهم من بنى عبد الرحمن الداخل . وامتدت خلافة الناصر من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ كانت قرطبة فيها العاصمة الكبرى للعلم والأدب والفن ، وإليها كانت رحلة طلاب العرب ، من شرق وغرب . وقضت سنن الحياة أن مثل ذلك الملك الشامخ لا يمكن أن ينهض على القوة السياسية والمنعة الحربية والتمدن العمرانى ، ما لم تؤيده دعائم راسخة من نهضة علمية وازدهار فنى .وذلك ما أدركه « عبد الرحمن الناصر » ، فلم يكتف بما تهيأ للدولة فى عصره من ذلك كله ، بل حرص أشد الحرص على أن يعد ابنه وولى عهده « الحكم الثانى » ليدعم البناء الحضارى الذى شيده أبوه عبد الرحمن الناصر ، ووضع أسسه الأولى جدّه عبد الرحمن الداخل .

واستحضر الناصر لولده الحكم أئمة العلماء وأقطاب الأساتذة ، فشغف بالعلم وأقبل على مجالسة العلماء ، فما تولى الخلافة ملقباً بالمستنصر بالله ، بعد أبيه الناصر ، حتى كان أعلم بنى أمية بالأندلس .

وفى عهد المستنصر ، تم تشييد مكتبة قرطبة الكبرى فى قصر الزهراء المشهور ، فلم يمض على تشييدها بضعة أعوام حتى صارت من كبريات دور الكتب العربية فى التاريخ . ويقول « المقرى : مؤرخ الأندلس » فى كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) إن المستنصر « كان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار ، رجالاً من التجار . ويرسل إليهم الأموال لشرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه »[١] .

وبلغ من شغفه بالكتب وسخائه فى البذل لها ، أن كان يتتبع أنباء ما يظهر من جديد المؤلفات ونوادر المخطوطات ، ويسعى فى سبيل جلبها إلى مكتبة الزهراء . من ذلك ما يذكره مؤرخوه ، أنه لما بلغه أن «أبا الفرج الأصفهانى» أتم تصنيف كتابه (الأغانى) بعث إليه من قرطبة ألف دينار ذهباً ثمناً للمخطوط ، فأرسل إليه أبو الفرج من بغداد نسخة منه قبل أن ينشره فى العراق . وفعل المستنصر مثل ذلك مع القاضى « أبى بكر الأبهرى» إمام زمانه فى الفقه المالكى ، وتلقى منه نسخة خطية من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم فى فقه الإمام مالك[٢] .

ولم تقتصر عناية المستنصر بالله على تزويد مكتبته بذخائر المخطوطات وكنوز العلم ، بل زودها كذلك بأشهر الخبراء والكتبيين وحذاق الخطاطين والنساخ والمشتغلين بالفنون والصناعات المكتبية .

وفى كتاب (نفح الطيب) ، للمقرى المتوفى سنة ١٠٢٧ هـ : « أن المستنصر بالله جمع بدار الكتب الحذاق فى النسخ والمهرة فى الخط والضبط والإجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله . واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا ما يذكر عن الناصر بن المستضىء »[٣] .

ونشطت حركة الترجمة فى عهد المستنصر بالله كما نشطت فى عصر الرشيد والمأمون بالمشرق ، مع فرق واضح قضت به طبيعة الظروف وتفاوت الأوضاع : ففى بغداد اتجهت الترجمة إلى النقل عن اللغات القديمة غير العربية . أما فى قرطبة فكان النقل عن اللغة العربية إلى لغات الفرنجة وبخاصة اللغتين الإسبانية واللاتينية . وكما كان المتعربون فى المشرق يجيدون لغاتهم الأولى وكثيرها شرقية ، كان كثير

(١ : ٣) نفح الطيب : جـ ١/١٨٠ ط الأزهرية المصرية .

من أهل الأندلس يتقنون الإسبانية واللاتينية . ونضيف إلى هذا الفارق بين البيئتين ، أن المكتبة العربية الأولى فى بغداد ، اهتمت بالانتفاع بتراث الفكر القديم ، لتغذى الفكر الإسلامى بروافد سخية من ماضى المعرفة ، أما فى الأندلس ، وقد نهضت بغداد بهذا العبء على خير وجه فلم تترك لقرطبة مجالاً فيه ، فكان الاتجاه إلى نشر الثقافة العربية التى بلغت عز نضجها وأوج نهضتها .

وأقبل الغرب على ورود هذا المنهل السخى ، حين كان الدور القيادى إذ ذاك للحضارة الإسلامية . وإلى قرطبة سعى طلاب العلم من أوربا يدرسون فى معاهدها وينقلون من ذخائر خزائنها . ومن أشهر هؤلاء الطلاب ، البابا سلفستر الثانى ، وكان فى شبابه قد رحل إلى المغرب والأندلس وأقام هناك يدرس العلم وينهل من منابع الفكر . وعكف على مطالعة ذخائر المكتبة العربية ، وعاد إلى إيطاليا مزوداً بأعلى ثقافة فى عصره ، فاعتلى كرسى البابوية فى أخريات القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) .

وفى مكتبة الزهراء ، وفى غيرها من دور العلم بالأندلس والمغرب ، ترجمت إلى اللاتينية كتب الأدوية والطب والجراحة ، مثل كتاب الأدوية البسيطة لابن الوافد — الطبيب العربى الأندلسى : ٩٩٧ م — وقد ترجم إلى اللاتينية نحو خمسين مرة . وكتاب الجراحة لأبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى — ١٠١٣ — وقد بقى أساساً للتعليم الجراحى بأوربا لبضعة قرون . كما نقل تراث اليونان إلى أوربا عن ترجماته العربية . ومن أعلام مترجمى العصر الأندلسى ، من العربية إلى اللاتينية ، جيرار دى كيمونا (١١١٤ : ١١٨٧ م) الذى نقل من العربية نحو سبعين كتاباً ، منها فلسفة الكندى والفارابى وقانون ابن سينا وعلم النجوم لجابر بن أفلح وكتب أرسطو وجالينوس .

وليس المجال هنا لإحصاء ما نقل إلى أوربا من ذخائر المكتبة العربية ، وإنما هى لمحة عابرة اقتضاها سياق الحديث عن حركة الترجمة فى عهد المستنصر مؤسس مكتبة الزهراء بقرطبة ، وما اقتضته ظروف الزمان والمكان من الاتجاه بالترجمة إلى نقل ذخائر الكتب من العربية إلى الإسبانية واللاتينية .

وقد يلفتنا ملحظ آخر ، من الظواهر المميزة للبيئة الأندلسية . فى تاريخ دار

العلم أو بيت الحكمة ببغداد ، لا نكاد نعثر على اسم امرأة فى خدمة هذا الصرح العلمى ، اللهم إلا عبارة وردت فى (رسالة الغفران) تشير إلى أمة غير عربية اسمها « توفيق السوداء » كانت تخدم فى دار العلم ببغداد فتقدم الكتب إلى النساخ[١] . وهذه الوظيفة تقابل فى المكتبة الحديثة ، ما يعرف بالمناولين .

على حين نقرأ فى تاريخ قرطبة الثقافى ، أنه « كان بالربض الشرقى منها ، مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفى » .

وكما اختلف المؤرخون فى إحصاء ذخائر مكتبة العزيز بالله فى القاهرة ، اختلفوا كذلك فى إحصاء رصيد مكتبة الزهراء فى قرطبة . ففى (نفح الطيب) أنها كانت أربعمائة ألف مجلد[٢] ، وفى رواية أخرى نقلها « وليم درابر » فى كتاب (الخصومة بين العلم والدين) أنها بلغت ستمائة ألف مجلد .

وكان لها فهارس منظمة ، بلغت أربعة وأربعين مجلداً . وذكر « ابن خلدون » أن أسماء دواوين الشعراء فى مكتبة قرطبة ، كانت تملأ وحدها ثمانمائة وثمانين صفحة ، مما يشهد بضخامة رصيد المكتبة ، وأخذها بنظام الفهرسة التى قد يُظن أنها من مستحدثات النظم المكتبية العصرية[٣] .

* * *

واللافت حقاً ، أن تأسيس مكتبة الزهراء بقرطبة ، يكاد يعاصر تأسيس مكتبة العزيز بالله فى القاهرة . فقد ولى المستنصر بالله الخلافة الأموية بالأندلس من سنة ٣٥٠ هـ إلى سنة ٣٣٦ هـ وهو العام التالى لخلافة العزيز الفاطمى بمصر . وكما عدّ المؤرخون عهد الرشيد وابنه المأمون عصر القوة فى الدولة العباسية ، عدوا كذلك عهد المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، عصر الازدهار للدولة الفاطمية ، وعهد الناصر وولده المستنصر بالله ، العصر الذهبى لدولة العرب والإسلام بالأندلس .

وهنا وهناك وهنالك ، كانت النهضة العلمية تساير عصور القوة للدول الثلاث ، وكان بيت الحكمة فى بغداد ، ومكتبة العزيز فى القاهرة ، ومكتبة الزهراء فى قرطبة ، عنوان هذه النهضة ورمزاً معبراً عنها وآية من آيات عزها .

---

(١) رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطىء — ص ٢٨٧ ط ٤ ذخائر .
(٢ ، ٣) المقرى : نفح الطيب — ١/١٨٤ .

كما كانت دور الكتب العامرة فى المشرق ، ومن أشهرها : مكتبة المدرسة النظامية ، وخزائن كتب النجف الأشرف ، وخزانة سيف الدولة فى حلب ، والمدرسة النورية ومكتبة أبى الفدا فى حماة ، والظاهرية فى دمشق ، وبنى عمار فى طرابلس ...

وفى المغرب مكتبات : الجامع الأعظم فى القيروان ، وجامع الزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى فاس ، والحكمة فى مراكش ، والجامع الأعظم فى مكناس . . .

كانت هذه الدور الثقافية وأمثالها مما لا يتسع المجال لاستيعابه ، تعطى تفسيراً تاريخياً لهذه النهضة التى حملت أمتنا لواءها فى العصر الوسيط [1].

---

(١) تجد تفصيل الحديث عن هذه المكتبات وغيرها ، فى المجلد الأول من (خزائن الكتب العربية).